## كلام الشهود

# من دفتر الثورة

## إبراهيم عبد المجيد

أجل كنت شاهداً علي هذه الثورة العظيمة لشباب مصر، وشاهدا لما فعله نظام مبارك من حرق لمصر. وهذا غيض من فيض سأكتبه يوماً، حين يعود إلينا الوطن كاملاً.

الثلاثاء، الخامس والعشرون من يناير، يوم الشرطة المصرية، الذي يصادف ذكرى مقاومة فريق من الشرطة المصرية للانجليز في العام ١٩٥٢ في مدينة الإسماعيلية، والذي صار عيداً يحتفل به كل المصريين.

بيد أن الشرطة المصرية علي طول تاريخها، بعد ثورة يوليو (تموز) ١٩٥٢ كانت أشد قسوة علي الشعب المصري من الاستعمار الانجليزي، وبلغت قسوتها مداها خلال الثلاثين سنة الماضية من حكم الرئيس مبارك، الذي حكم تحت مظلة قانون الطوارئ. القانون الذي يتيح لأي رجل من رجال الشرطة أن يقبض علي أي شخص ويودعه في السجن بلا اتهام واضح.

أصبح تعذيب الناس في أقسام البوليس أمراً عادياً وصل إلى حد تعذيب النساء أيضا. غير التعذيب، صارت الشرطة تعني الفساد والرشوة، فأنت لا تستطيع عمل

---

**إبراهيم عبد المجيد، روائي مصري**

أي شيء دون رشوة الشرطة، وازداد الفساد الذي وصل إلى طائفة من الناس تسمي أمناء الشرطة، وهي رتبة أقل من الضابط، وأعلى من الجندي.

صاروا عبئا على كاهل كل الفئات الاجتماعية، بطلباتهم التي لا تنتهي من الرشوة والجباية. علاوة على ذلك، ووفقا لقانون الطوارئ، صار جهاز أمن الدولة يتحكم في كل شيء. وهو الجهاز الأكبر في أجهزة الشرطة.

صار المتحكم في كل شيء. فلا وظيفة لمنصب رئيس للتحرير، أو مدير عام في مصلحة، أو معيد في الجامعة، أو رئيس لجامعة، أو شيخ في مسجد، يمكن أن تتم بعيداً عن موافقة أمن الدولة، وهذا يصدق بالطبع على إصدار صحيفة، أو إنشاء دار للنشر. باختصار، تضخم هذا الجهاز الذي كان معنياً بالسياسيين في عهد عبد الناصر، فأصبح معنياً بكل شيء في البلاد.

اختار المتظاهرون يوم الثلاثاء، في الخامس والعشرين من يناير، في ما يبدو لتكون الشرطة رحيمة بهم يوم عيدها، فلا تُلوِّث هذا اليوم بضربهم، والاعتداء عليهم.

كنتُ، يوم الثلاثاء، في مكاني المفضل في منطقة وسط البلد، حيث مقهى ريش الشهير، أو مقهى زهرة البستان القريب. وعندما اندلعت المظاهرات لم تتدخل الشرطة حتى الساعة الثالثة مساءً، حين أذيع بيان في التليفزيون المصري يقول إن عناصر من الإخوان المسلمين اندسوا بين المتظاهرين، وسيقومون بالتخريب.

اندس عدد من رجال الشرطة السرية بين المتظاهرين، وراحوا يقذفون الشرطة بالحجارة لترد علي المتظاهرين جميعهم، ولكن سرعان ما سيطر المتظاهرون عليهم، وفشلت الخطة.

كان واضحا أن الشرطة ستستخدم فزّاعة الإخوان المسلمين، التي تخيف الغرب، لتفعل بالمتظاهرين ما تريد، وتستخدم بعض رجالها في ثياب مدنية، لإشعال المعركة، لكن الخطة فشلت، وظل المتظاهرون يتجمعون في ميدان التحرير.

كان الأمر مختلفا في مدن أخري مثل السويس، والإسكندرية، والمحلة الكبرى، حيث قامت الشرطة باستخدام القنابل المسيلة للدموع، والرصاص الحي، والمطاطي، فوقع شهداء، لم يقع مثلهم في القاهرة، التي كانت تحت سمع وبصر الإعلام

والصحافة العالمية.

بعد منتصف الليل قامت الشرطة بهجوم كبير بالمدرعات استطاعت فيه إنهاء المظاهرة الكبرى في ميدان التحرير، وقبضت بشكل عشوائي علي مئات من المتظاهرين، وغير المتظاهرين، أودعتهم معسكرات للشرطة بعيداً عن القاهرة.

يوما الأربعاء والخميس مرا مروراً عادياً في القاهرة، لكن المظاهرات، وقتل المتظاهرين، استمرا في السويس والإسكندرية، بل وأفرجت الشرطة، في القاهرة، عن كثير من المعتقلين.

لكن الشباب تراسلوا علي صفحات الفيس بوك، وتويتر، وغيرها، ليكون يوم الجمعة هو يوم الغضب، بعد صلاة الجمعة، وفي وقت الظهيرة مباشرة. يوم الخميس انقطعت الانترنت في مصر بعد منتصف الليل، وانقطع الفيس بوك، وأُغلق موقع تويتر.

كانت الدولة يوم الثلاثاء قد قطعت الاتصال بالتليفون المحمول عن منطقة وسط البلد، فقط، أما الآن فقد أوقفت الشبكات التليفونية للمحمول، والانترنت.لكن الموعد الذي سبق تحديده بعد صلاة الجمعة لا يخطئ فيه أحد.

وصلت إلى منطقة وسط البلد، كالعادة، في الحادية عشر صباحاً، فوجدت الشوارع مغلقة بقوات الشرطة من كل ناحية. قوات الأمن المركزي، التي تزيد عن ٢ مليون مجند، وهم عادة من فقراء الفلاحين، يغسلون أدمغتهم، فيعتبرون المتظاهرين كفاراً أو شيوعيين، أو غير ذلك، ولا يستطيعون مخالفة أوامر ضباطهم.

ولكن، رغم هذه الحشود الأمنية، لم يكن ممكناً منع الناس من الصلاة، إلا في بعض الجوامع الكبرى. انتهت الصلاة، وكنتُ جالسا في مقهى البستان القريب من مقهى ريش، فإذا بالمصلّين ينتفضون بالشعارات المعادية للرئيس مبارك ونظامه من جميع الجوامع القريبة، لكنهم لم يستطيعوا التجمع أبداً في ميدان التحرير، حيث تقطع الشرطة ورجالها كل طريق.

كانت النتيجة أنهم انتشروا في كل طرق وسط البلد الهامة، ومشيت مع بعضهم أتابع الموقف. أُطلقتْ قنابل الغاز المسّيل للدموع بكميات مُرعبة، لا يتخيلها بشر.

ربما عشرات الآلاف من القنابل، حتى ابيض الفضاء في كل الشوارع، ورائحة الغاز تخنق الجميع، وظهرت في أيدي الشباب زجاجات الخل، وثمار البصل، وعلب البيبسي كولا، التي تساعد علي ضياع اثر القنابل المسيلة للدموع. وقد وصلت لكل مشتركي الفيس بوك من قبل نصائح من الشباب التونسي باستخدام هذه الأشياء في مقاومة الغاز.

أصابني ما أصاب الجميع، لكن عمري وقوتي لم يحتملا فسقطت علي الأرض، قبل سقوطي جريت إلى مقهى ريش، الذي كان يفتح بابه بحذر، فدخلت وأغلقوا الباب. هناك سقطت. وهناك استعدت قوتي، بعد دقائق، وخرجت أتابع الموقف.

ابتعدت عن وسط البلد إلى منطقة «معروف» القريبة، فوجدت الشرطة تطارد المتظاهرين، ويتقدمها بلطجية، ومجرمون يتبعون البوليس. وفي لحظة دخلت إحدى العمارات، ومعي زوجتي، وأغلق بوّاب العمارة بابها، لكن البلطجية، والقتلة، الذين أطلقتهم الشرطة يحملون سيوفا وبلط جمع بلطة كسروا الباب، فصعدنا إلى الدور الثالث، ولم ينقذنا منهم إلا شباب العمارة، الذين قذفوهم بكل ما يستطيعون، وإحدى السيدات، التي فتحت لنا الباب، لنختبئ عندها حتى ينتهي الأمر.

اندهشت جداً كيف يطاردونني وأنا في هذه السن، ومعي زوجتي، ولا يبدو عليّ أني اشترك في القتال ضدهم. تابعت التلفزيون لدقائق، عند السيدة التي فتحت لنا الباب، وكانت الساعة الرابعة والنصف تقريباً، فوجدت جميع قنوات التلفزيون المصري تتحدث عن تخريب بدأ المتظاهرون يمارسونه، فأدركتُ أن الدولة ستستخدم طريقتها التقليدية، التي اتبعها الرئيس السادات مع مظاهرات الخبز في العام ١٩٧٧، حين أرسلت الشرطة المتعاونين معها من المجرمين لسرقة محلات شارع الهرم، ثم ألصقت التهمة بالمتظاهرين.

ولم تمر أكثر من ثلاثين دقيقة، حتى انسحب البوليس فجأة من الشوارع، وبدأت العصابات المنظمة تقوم بعملها في حرق ونهب البلاد. كان ما أذاعه التلفزيون المصري عن ذلك، في ما يبدو هو الشفرة السرية التي ينسحب بعدها الجنود، ويخلو الأمر للصوص، والمجرمين، وقطاع الطرق، وهم السلاح السري للشرطة، التي تسيطر

به علي الانتخابات البرلمانية والرئاسية وغيرها.

استطاع المتظاهرون الوصول إلى ميدان التحرير إذاً، واستمرت الأخبار تأتي بحوادث السرقة، والحرق. حاول البلطجية حرق المتحف المصري، الذي أقام حوله المتظاهرون درعاً بشرية لحمايته، وقد رأيتُ ذلك بنفسي، وامسكوا باللصوص الذين حاولوا سرقته، وكانوا، للأسف، من رجال الشرطة في زي مدني، أسلمهم المتظاهرون لقوات الجيش التي نزلت إلى الشوارع.

لم يكن ثمة شيء ليلة السبت سوى الأخبار التي تأتي من كل البلاد، وخاصة الإسكندرية والسويس، حيث سيطر المتظاهرون علي كل شيء، وأخبار الحرائق التي يقوم بها رجال الشرطة من البلطجية، والقتلة، وأخبار السجون التي فُتحت للمجرمين للخروج في جميع أنحاء البلاد.

نهار السبت لم يكن فيه غير شعارات وهتافات المتظاهرين في ميدان التحرير، الذين تجاوزوا النصف مليون، وظهرت في المظاهرة أطياف المصريين من مشايخ، وفنانين، ومثقفين، وطلاب. كانت السعادة علي الجميع لا تنقطع، وغابت الشرطة تماماً، وبدأ الشباب في الأحياء المختلفة يكونون لجانا شعبية لتحمي مساكنهم وأهلهم من قطاع الطرق والمجرمين الذين أطلقتهم الشرطة من كل مكان.

في المساء بدأ البعض يحتشدون حول وزارة الداخلية، وكان واضحاً انه لا يمكن اقتحامها لوجود سورها العالي، ولوجود الجيش حولها، لكن القناصة فوق سطح الوزارة، من قوات الشرطة، كانوا يطلقون الرصاص الحي طول الليل، مساء السبت، وحتى صباح الأحد. قتلوا أكثر من خمسين شاباً متظاهراً في تلك الليلة، لكن ذلك لم يمنع المظاهرات الكبرى التي صارت في ميدان التحرير الآن من الاستمرار في الهتاف بسقوط النظام.

بسرعة، صارت هناك لافتات صغيرة من الورق العادي، وبسرعة، بدأت خفة دم المصريين وروح الفكاهة في الظهور، فظهرت لافتات من نوع:

« كيلو اللحمة بميت جنيه ومتر مدينتي بنص جنيه »، في إشارة إلى أراضي الدولة التي وزعها النظام علي أصدقائه من رجال الأعمال، تقريبا بلا ثمن. ولافتات مثل:

« امشي بأه يا عم، وخلي عندك دم » .

وفي صباح الأحد ازدادت اللافتات الفكهة : « امشي بأه دراعي وجعني »، يعني لقد تعبت من حمل اللافتة التي هي من الورق . ولافتة أخرى : « رئيس مستعمل + خلاط بخمسة وعشرين جنيه »، في الوقت الذي لا تتوقف الهتافات : « الشعب يريد إسقاط النظام »، و« الشعب يريد محاكمة النظام »، و« مسلم ومسيحي إيد واحدة « ، تم التركيز كثيراً على هذا الشعار .

وبدا أن الثورة، وليست المظاهرة الآن، صارت هي بيت المصريين جميعهم، فامتلأت بالنساء، والفتيات، ولم تحدث واقعة تحرش جنسي واحدة، بين مئات الآلاف من المتظاهرين، ولا حادثة سرقة، وبدأت البيوت التي تحيط بالميدان تلقي لهم بزجاجات المياه المعدنية للشرب، وبدأ الكثيرون منهم في الخروج ليشتروا بكل ما يملكون من مال طعاماً للجميع، وأتت الأخبار من كل البلاد، أن الثوار قد سيطروا عليها، واختفت الشرطة، وبدأ الشباب يضحكون مع رجال الجيش، ويعتلون الدبابات، ويرقصون، ويكتبون عليها شعارات تدعوا لسقوط مبارك .

وفي الليل حين كنت أعود إلى بيت أحد معارفي في منطقة عابدين لأنام، حيث يبعد بيتي كثيراً عن القاهرة، رأيت شباب مصر ينظم الحركة، ويفتش كل السيارات، ويمسك باللصوص، الذين نهبوا المولات، والمحلات، ويسلمونهم للجيش .

رأيت ذلك، كثيراً، في النهار والليل، ورأيتهم أيضا يمسكون بجنود الأمن المركزي، الذين فروا من وزارة الداخلية، بعد أن فرت منها قياداتها، لكنهم لا يضربونهم، بل يقدمون لهم الطعام، وكانوا بالمئات، لا يصدقون أن المتظاهرين يمكن أن يفعلوا ذلك .

كما كان شباب مصر يطاردون السيارات المجهولة، التي صارت تظهر في الليل تطلق الرصاص علي المارة، وكانت في معظمها سيارات مرسيدس، وجيب وغراند شيروكي، مما يشير إلى أصحابها من رجال الأعمال، الذين قدموها لرجال الشرطة، ليثيروا الرعب في الشوارع .

كان المتظاهرون يتعرفون علي جنود الأمن المركزي بسهولة حيث خلعوا أحذيتهم،

وملابسهم الرسمية، وحاولوا العودة إلى بلادهم في الريف. خطب الرئيس حسني مبارك، لكنه لم يقدم شيئا للمتظاهرين.

لقد غيّر الوزارة، وعين نائباً له هو الفريق عمر سليمان، من جهاز المخابرات، ورئيس وزراء هو أحمد شفيق، ضابط الطيران السابق، لكن كان واضحاً أنه لن يغير الدستور، ولن يحاسب أحداً ممن قتل الناس، أو نهب ثروة مصر، فازدادت الثورة، وتقرر أن يكون يوم الثلاثاء هو يوم المظاهرة المليونية.

وبالفعل احتشد في الميدان ثلاثة ملايين، علي الأقل، وراحوا يهتفون بسقوط مبارك ونظامه، ويغنون. انطلقت أغنيات الشيخ إمام، وعبد الحليم حافظ، ومحمد منير الوطنية، وأغنية داليدا: «حلوة يا بلدي»، وكان يوما حافلا بالأمل.

كانت الوزارة الجديدة تحوي أكثر من عشرين اسماً من الوزراء القدامى، الذين أذلوا الشعب، وبالذات وزير التموين، ووزير الإعلام، الذي حول الإذاعة والتلفزيون إلى منصة للجهل والأكاذيب. وكان واضحاً انه لا يمكن الحوار مع هذه الوزارة الجديدة، وهو ما طلب الرئيس أن يحدث بين المتظاهرين ونائبه.

خطب الرئيس خطبته الثانية، التي أعلن فيها أنه لن يترشح للرئاسة مرة أخرى، لكنه لم يشر إلى أن ابنه جمال لن يترشح، وأنه طلب من مجلسي الشعب والشورى تغيير مادتي الدستور ٧٦و٧٨، الأولي تجعل ترشيح الرئيس إلى الأبد، والثانية تجعل الترشيح من أصعب المهام علي غير أعضاء الحزب الوطني، لكنه لم يشر إلي المادة التي تمنع الإشراف القضائي، ولم يشر مرة أخرى إلى الفساد والمفسدين، وإلى أموال الشعب المنهوبة على مدار ثلاثين سنة.

لم يقل كلمة عن الذين قتلوا شباب الثوار، ولا عن أهلهم يعزيهم. كان من الطبيعي أن يرفض الثوار الخطاب رغم أن عددا كبيراً منهم قبله، وبالذات حين استرّق الرئيس عطف الناس بقوله إنه مصري، وسيموت على أرض مصر.

كان من الممكن بدلا أن ينتظر رجال الدولة أن يفاوضهم أحد، أن يذهبوا هم إلى الثوار، خاصة في اليوم التالي لخطاب الرئيس، الأربعاء، الذي لم يكن مفاجئا لأحد أنه من قبل خطاب الرئيس، يتم جمع البلطجية والفقراء والمتسولين عند مبني

الإذاعة والتليفزيون ويقبض كل منهم خمسين ومائة ومائتي وثلاثمائة جنيها حسب المنظر والله ووجبة طعام، وكذلك الأمر في مقرات الحزب الوطني بالقاهرة، بالإضافة إلى السكاكين والعصي والسيوف والبلط.

وما كاد الرئيس ينتهي من خطابه حتى حاصر هؤلاء القتلة الثوار، واستعانوا أيضا بالخيل والجمال لمهاجمتهم، وقد وصف احد الثوّار مبارك أنه مثل «أبرهة الحبشي» الذي غزا مكة وأراد حرق «الكعبة»، وهو يركب الجمال، هو وجيشه. اجل ميدان التحرير هو كعبة الثوار في كل العصور.

وظل الغزاة يهاجمون الميدان، وهناك أكثر من ألفي جريح وعشرات المقتولين، وانتشرت الأخبار أن وراء ذلك كله صفوت الشريف، رئيس الحزب الوطني القديم، وعدد من رجال الأعمال، ووزير البترول سامح فهمي، الذي اخرج العمال من الشركات نظير مبالغ مالية ضخمة لم يدفعها لهم بعد ذلك فثاروا ضده ليقضوا علي أعظم وأجمل الثوار في تاريخ مصر كله، وتاريخ العالم.

ظل الثوار يقاومون وحسني مبارك لا يتدخل لإيقاف المجزرة، ولا نائبه عمر سليمان، ولا رئيس وزرائه الجديد احمد شفيق، ولا وزير داخليته الجديد، أي الذين كان يمكن لهم إنهاء المجزرة بأمر المهاجمين، من المرتزقة والقتلة، بالابتعاد عن الثوار. لكنها مصر في عهد مبارك، وحزبه الوطني حوّلها إلى بلاد لقطاع الطرق والفاسدين والقتلة من كل نوع.

وماذا بعد قتل الثوار، هل نعم مبارك بالحكم؟ كيف كان يتصور ذلك؟ لقد خرج غير مأسوف عليه.

لقد عرف الشعب طريق الثورة، أحرق حسني مبارك ورجاله، علي اختلاف أنواعهم، مصر وشبابها. لم يكن في مصر، للأسف، نيرون واحد، بل كل رجال الحكم هم نيرون، الذي يتباهي بحرق الوطن. ولا يزال منهم في السلطة الكثير. والثورة مستمرة حتى النصر.